الغجر في العراق

م.م. محمد باقر ناصر كاظم

قسم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع/كلية الآداب/الجامعة المستنصرية

Mohammedbaqernaser@uomustansiriyah.edu.iq

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٥/٣/٢٤

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٥ /٤/١٠

الخلاصة :

يمثل الغجر ثقافة فرعية خاصة داخل المجتمع العراقي الأوسع، يؤسسون لممارسات غير مقبولة اجتماعياً. وقد جاءوا للعراق عبر هجرات بدأت من الهند، مروراً ببلاد فارس، ثم انتشروا لبقاع مختلفة، كان العراق وجهة مناسبة للكثير منهم.

وجاء عدم قبول الغجر في المجتمع العراقي نتيجة لهويتهم الاقتصادية الخاصة، التي تتمثل بمهن محددة يشتهرون بها، مثل الفن، البغاء، والتسول، ويتم ممارسة تلك المهن عادة بأسلوب جماعي، يوفر حماية ولحمة اجتماعية لبعضهم البعض، تبعاً لذلك فلعنصر القرابة تأثير كبير على حياة الغجر.

وعلى الرغم من ذلك ليس للغجر شيوخ/رؤساء عشائر، لكن عدداً قليلاً منهم يرتقون في مكانتهم نتيجة السلطة الاجتماعية المعززة بالعلاقات الاجتماعية الخارجية، مع توافر عامل اقتصادي.

كما تفرض المهن الغجرية في العراق تديناً شكلياً بالنسبة للفرد الغجري، فهم يتدينون بالدين الإسلامي، وينقسمون لسنة وشيعة، جاء ذلك نتيجة لتأثرهم إيكولوجيا بالمناطق التي سكنوها، سواء في الجنوب أو الشمال أو الوسط. وتدينهم جاء رغبة منهم في الاندماج بالمجتمع الأوسع، تلك الرغبة التي لم تتحقق إطلاقاً، لهذا فهم

يتواصلون مع المجتمع الأوسع بحذر شديد، لكنهم يتواصلون مع بعضهم وفقاً لمحددات اللغة المشتركة والشكل الفيزيقي المتشابه، فضلاً عن الأنماط السلوكية والثقافة المشتركة.

الكلمات المفتاحية : الغجر، ثقافة ، البغاء،التسول ،الفن.

The Gypsies in Iraq

Assistant Lecturer: Mohammed Baqer Nasser Kadhim

College of Arts / Al-Mustansiriya University

Mohammedbaqernaser@uomustansiriyah.edu.iq

Date received: 24/3/2025
Acceptance date: 10/4/2025

Abstract:

The gypsies represent a distinct subculture within the broader Iraqi society, characterized by practices deemed socially unacceptable. Their migration to Iraq originated from India, passing through Persia, and eventually spreading to various regions, with Iraq becoming a suitable destination for many of them.

The societal rejection of gypsies in Iraq is attributed to their unique economic identity, which is defined by specific professions they are known for, such as art, prostitution, and begging. These professions are usually practiced collectively, providing social protection and cohesion among them. Consequently, kinship plays a significant role in the lives of the gypsies.

Despite this, the gypsies lack tribal leaders or chiefs. However, a few individuals ascend in status due to their social authority, which is strengthened by external social relations alongside economic factors.

Furthermore, the professions practiced by the gypsies in Iraq impose a superficial religiosity upon them. They identify with Islam and are divided into Sunni and Shia factions, influenced ecologically by the regions they inhabit, whether in the south, north, or central Iraq. Their religiosity stems from a desire to integrate into the broader society—a desire that remains unfulfilled. Thus, their interaction with the wider society is marked by extreme caution. In contrast, their internal communication is governed by shared language, physical similarities, as well as common behavioral patterns and cultural traits.

Keywords Gypsies, culture, prostitution, begging, art.

المقدمة:

يمثل الغجر جماعة اجتماعية تتميز بأنماط ثقافية خاصة، مع توافر مجموعة متراصة من الممارسات، تبعاً لذلك يحاول هذا البحث كشف اللبس والغموض عن تلك الممارسات والأنماط، فهذا اللبس متأت من انعزال الغجر وعدم اندماجهم بالمجتمع الأوسع، نسبة لاستبعاد اجتماعي تعرضوا له لمدة زمنية طويلة، كان سببه نوع الممارسات الغجرية.

وتتنوع ممارسات الغجر بين الفن والتسول والبغاء، وهذه المهن توصف عادة بأنها مهن وضيعة، لايستسيغها المجتمع الأوسع، لهذا يكمن موضوع البحث في التركيز على انقطاع تواصل الغجر مع المجتمع الأوسع، فضلاً عن عدم استقبالهم كأسوياء.

ولكن للوقوف على مهن الغجر وأنماطهم الثقافية يتحتم علينا تطبيق المنهجية الأنثروبولوجية القائمة على الملاحظة بالمشاركة والمعايشة الميدانية، لهذا سوف نجري عدداً من المقابلات مع غجر عراقيين في مناطق متفرقة من بغداد، مع التركيز على منطقة الطوايل، مكان سكنهم بعد العام ٢٠٠٣، وذلك للوقوف على تصوراتهم وفهمهم للعالم.

تبعاً لذلك تنقسم أهداف البحث على النحو الآتي:

١- الوقوف على تواصل الغجر مع بعضهم البعض من جهة، ومع المجتمع الأوسع من جهة أخرى.
٢- معرفة أصل الغجر، والوجهة التي قدموا منها.
٣- فهم الثقافة الغجرية.

المحور الأول: أصل الغجر

إن الغجر بوصفهم قوم جاء ذكرهم في المعجم الوسيط بأنهم جفاة منتشرون في جميع القارات، ويلتزمون بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، ويعتمدون على التجارة في معيشتهم، والواحد منهم غجري (المعجم الوسيط، ٢٠٠٤).

ويؤكد (جان بول كليبر) أن الغجر قوم يألفهم الترحال فهم يعيشون حياة بدوية، منتشرون في جميع بقاع الأرض، حيث واكبوا مختلف الحضارات، وهم شديدوا التمسك بتقاليدهم وعاداتهم، ويتميزون بنظرتهم العنصرية

تجاه غير الغجري فيسمونهم بالكاجو ويعني فلاح أو مزارع، ويقصد منها الذم والتحقير، تماماً كما تعني كلمة جلف أو غير مهذب أو قن، أما هم وفي نظرهم فسادة الأرض (كليبر، ١٩٧٢). وإن كلمة الغجر هندية الأصل، هناك لغة هندية قديمة تدعى بالغجراطية، ويعتقد أنها تعود إلى إقليم غوجرات (الهاشمي، ٢٠١٢).

في حين يعرف جمال حيدر في كتابه الغجر ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب بأنها تسمية ارتبطت بالتصورات السائدة لدى العامة وتتمحور حول معنى موحد يتبلور بأن الغجر هم: المشعوذون، داكنو البشرة، اللصوص، المتسولون، الفئات المنحطة في المجتمع، الكفرة وحاملوا الأرض (حيدر، ٢٠٠٨).

وإن الغجر يتميزون بعادات وتقاليد خاصة، يختلفون بها عن باقي الثقافات، وهذا الاختلاف والتميز البارزين أدى إلى إهتمام الباحثين الأنثروبولوجيين، فوصفهم الكثير من العلماء وفي مختلف الدول، هذا مادفع بالبعض إلى إطلاق تعبير أو مفهوم Gysiology أي علم الغجريات على جميع الكتابات التي تهتم بالغجر (حنا، جماعات الغجر: مع إشارة خاصة لغجر مصر والبلاد العربية، ١٩٨٠).

فيما يعرف طه حمادي الحديثي الغجر بوصفهم جماعة إثنية مورس ضدهم التمييز، لامتهانهم مهناً لم تلق استحسان العامة، كالرقص والبغاء والتسول والسرقة مما أدى إلى تكوين صورة نمطية تجاههم في مختلف الثقافات (الحديثي، ١٩٧٩).

ويعد الغجري سحار، إذ يمارس الغجر السحر بنوعيه الأسود والأبيض، وتحترف النساء سحر الأعشاب، لاكتساب الرزق على سبيل المثال، ولكن السحر الأسود يعتبر الثيمة الأهم للغجريات في تقديمها لأصحاب الحظ المتعثر والعاشقات والمنتفعات والعوانس والباحثات عن حمل محتمل، فإن السحر عند الغجر هو امتياز أنثوي تمارسه النساء بشكل خاص (حيدر، ٢٠٠٨).

تبعاً لذلك يتميز الغجر بثقافة خاصة، كما يعانون من التهميش والتمييز أين ما رحلوا، بسبب مهنهم المتقاطعة مع الثقافة السائدة في معظم المجتمعات، والمجتمع العراقي خير دليل على ذلك.

وتتعدد الفرضيات حول أصل الغجر، إذ أشار الباحث (جان بول كليبر) أن هناك العديد من الأساطير تناولت أصل الغجر ونشوءهم في بلاد وادي الرافدين (العراق)، وتعد هذه الأساطير فرضيات قام بصياغتها الغجر أنفسهم، إذ يعتقدون ويدعون أنهم ينحدرون من حام ابن نوح جدهم، وإنهم هاجروا إلى بلاد الكلدانيين

واستولواْ عليها بعدما عوملواْ بقسوة إثر اكتشافهم طريقة صهر النحاس والحديد فضربواْ بالسياط ليعملواْ رغماً عنهم، وبعدما سكنواْ بلاد الكلدانيين ضاق بهم هذا البلد فقرروا الانقسام إلى جماعتين إحداهما هاجرت إلى الهند وأخذت منها مهنها ولغتها، وفئة أخرى قد حولت مسارها لترحل إلى بلاد جال– chal أي مصر، أما الجماعة الأخرى فبقيت في بلاد كالدي حيث تحالفت مع شعب أسيري أي الآشوريين، ويردفون القول أنهم بنواْ بعد ذلك مدينة ضخمة سميت بابيلا أي بابل واتخذوها عاصمة لهم، إذ حكم الدولة اثنان من ملوكهم وهم بوديلو– Pudilo وابنه رومانو نيرانو–Romano Nirano، واستمر الحال إلى أن قام كيروشو أو كورش ملك الفرس بإعلان الحرب عليهم فاضطرهم ذلك إلى ترك بلاد كالدي والتوجه غرباً متجولين باحثين عن موطن جديد يأويهم (كليبر، ١٩٧٢).

لو نظرنا إلى هذه الأسطورة والأساطير الغجرية الأخرى لوجدنا أن عدم الإستقرار والترحال صفة لازمتهم، وإنهم غالباً ماينسبون أنفسهم لشخصيات تأريخية ومرموقة في المجتمع. لكن الأمر لايقف عند هذا الحد، إذ تفترض بعض الدراسات رأياً مفاده أن هناك علاقة بين الغجر ومصر، ويرى أصحاب هذه الآراء أن الغجر الذين يعيشون في أماكن متعددة يشغلون مناطق متفرقة من العالم ترجع أصولهم إلى مصر، ويقول الباحث بروتون إذا كان هناك شيئاً ظل ثابتاً يتعلق بالغجر فذلك هو التأكيد على أنهم وفدواْ أصلاً من مصر، ذلك البلد الذي منحهم السكنى والاسم، وهو البلد الوحيد الذي استطاع الغجر فيه الحفاظ على سماتهم الفيزيقية، وعلى مهن أجدادهم، ويذكر أصحاب هذا الرأي أن كلمة Gypsy تطور لكلمة Egyption، ويستند أصحاب هذا الرأي في تدعيم آرائهم إلى شواهد أخرى فيقولون أن الغجر عرفواْ في أماكن كثيرة بالفراعنة المصريين. فقد أطلق عليهم مثلاً الشعب الفرعوني (حنا، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر، ١٩٨٣).

هذا وظهرت بعض الأساطير لتدعيم الرأي السالف الذكر، إذ تنسب هذه الأساطير الغجر إلى بلاد الشرق وخاصة مصر، حيث أطلق عليهم اسم المصريين منذ عدة قرون في أوربا، فكل من عمل بالشعوذة والسحر وقام بتقديم الاستعراضات المتجولة في الطرقات العامة لقب بالمصري في ذلك الوقت، وعلى الرغم من أن هؤلاء المصريين لم يكونواْ معروفين في الغرب قبل القرن الخامس عشر فإن الغجر أنفسهم قد ادعواْ أنهم جاءواْ من ضفاف النيل، أو ربما رأى سكان البلاد الأصليون فيهم سحرة طردواْ من تلك البلاد التي فاقت سمعتها غيرها من البلدان في هذا المضمار. يشار أن رؤساء الغجر في المناطق الأوربية كانواْ قد أطلقواْ على أنفسهم لقب أمراء مصر (كليبر، ١٩٧٢).

وبدورنا نعتقد مستندين إلى مطالعاتنا في تأريخ الغجر فضلاً عن ملاحظاتنا للجانب الفيزيقي الخاص بهم في دراستنا الميدانية أن من الاستحالة الوثوق بهذا الفرض صاحب الأصل المصري، وإن الغجر في أوربا قد اتخذواْ من الرومنية لغة خاصة بهم، هذا ما لم نجده في مصر، فضلاً عن أن معظم الآراء التي تؤكد أصلهم هذا لم تستند إلى دلائل علمية واضحة، بل اعتمدت حكايات وفروض يصعب التسليم بها.

فيما بين بعض الكتاب رأيهم حول الأصل اليهودي للغجر، مستندين بذلك إلى عدد من الفروض المستقاة من مجموعة الأحداث التأريخية التي خصت اليهود، فقد كان لتشابه عمليات القسر والتهميش التي حصلت أثر في هذه الكتابات، فضلاً عن ذكرهم لبعض المهن والحرف التي امتهنها الغجر واليهود سوياً.

واعتبر بعض المؤرخين حدساً أن البوهيميين أو الغجر قد وفدواْ من آشور و سيلوقا (في جنوب شرق آسيا الصغرى) ومن النوبة والحبشة من بلاد الكلدانيين، ورأى بيلون أنه من الطبيعي أن نعتقد أنهم هم اليهود الذين اختلطواْ بالمسيحيين المشردين، وفي منتصف القرن الرابع عشر منيت أوربا وخاصة ألمانيا وفرنسا بوباء الطاعون، وقد وجه الاتهام إلى اليهود بأنهم هم الذين وضعواْ السم في الآبار وخزانات المياه، فقد أثار هذا الاتهام سخطاً على اليهود حتى أن بعضهم فر إلى الغابات، وقد اتحدواْ مرة أخرى ليؤمنواْ أنفسهم، وقاموا ببناء مخابئ بأحجام مناسبة لكي يحتمواْ بها تحت الأرض، ومن المعتقد أنهم هم الذين حفرواْ النقوش وأشكال النحت الموجودة حالياً في المانيا، والتي لم يهتم بها أحد بصورة جدية (حنا، جماعات الغجر: مع إشارة خاصة لغجر مصر والبلاد العربية، ١٩٨٠).

وبعد خمسين سنة خرجواْ من مخابئهم لا يفقهون شيئاً لكسب المال إلا عن طريق بعض المهن التي تعلموها في القدم، كفنون العرافة المختلفة وخاصة قراءة الطالع عبر الكف وهي لا تتطلب أي أدوات أو أجهزة أو أي نفقات من أي نوع (حنا، جماعات الغجر: مع إشارة خاصة لغجر مصر والبلاد العربية، ١٩٨٠).

يذكر أن من بين الكتاب الذين حاولواْ أن ينظرواْ إلى الغجر على أنهم يهود حقيقيون الألماني فاجنسيل الذي أسس استنتاجه منذ سنة (١٧٠٠) على أساس المظهر الفيزيقي للغجر واليهود (حنا، جماعات الغجر: مع إشارة خاصة لغجر مصر والبلاد العربية، ١٩٨٠). لكن تفنيد فرضية الأصل اليهودي للغجر نابع من رغبة الغجر الملحة في جلب تعاطف الآخرين عليهم، شأنهم ذلك شأن اليهود، فالاستبعاد الثقافي والاجتماعي للغجر يجعلهم خلاقين للحكايات التي ترسس لتعاطف الآخرين.

بينما يعد الرأي الراجح لأصل الغجر هو الهند، فقد أجمع معظم الباحثين المهتمين بدراسة الغجر على أن الهند هو الموطن الأول للغجر، ليبين الدكتور نبيل صبحي حنا أن الغجر ينتمون للجنس الهندي، وهم ليسوا إلا قبيلة متجولة في أحد الأودية الهندية، وهناك احتمال أن يكون الغجر هم سلالة من الدهماء الهنود الذين طردهم الغزاة التتار من ديارهم، ويؤكد أيضاً أن للغجر لهجة تشبه تماماً لهجات شمال الهند لدرجة أن الرجل الهندي الحالي يمكن أن يفهم تماماً لغة قبائل الغجر الأوربية، ويفترض بعض الكتاب أن الغجر كانواْ قبائل بدوية تمارس السلب والنهب في الهند قبل أن يطردهم الغزاة. وهناك احتمال أكبر أن يكون الغجر قد انحدرواْ من من طبقة منبوذة مثل الكاندالز– Chandals فهم مثلهم مثل الغجر ليست لهم مكانة اجتماعية عالية (حنا، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر، ١٩٨٣).

فيما يذكر الفردوسي الشاعر الفارسي في كتابه الشاهنامة، بأنه لاحظ بهرام جور الأمير الحكيم من سلالة الساسانيين في بلاد فارس التي حكمت من (٢٢٦) قبل الميلاد حتى (٦٤١) بعد الميلاد أن شعبه المسكين قد أنهكه الشوق إلى المسرات والبهجة وبحث عن الوسائل التي يستطيع معها رفع معنوياته وأن يجلب له التسلية في حياته القاسية، فأرسل بعثة دبلوماسية إلى شنكال– Shsnksl ملك كمبودية ومهراجا الهند، طالباً منه أن يختار من بين شعبه أشخاصاً ذوي قابلية لتخفيف الآلام ونشر المرح والمسرة بين الشعب الغارق في العمل القاسي والبؤس أن يرسلهم إلى بلاد فارس، فحصل بهرام جور بذلك على إثني عشر ألف مغن متجول رجالاً ونساءً، وبعد ذلك أسكنهم ومنحهم الأراضي والماشية والبذور لكي يعتاشواْ على ذلك ويسعدواْ ويرفهواْ عن شعبه مجاناً، وبنهاية السنة الأولى ترك هؤلاء القوم الزراعة واستهلكواْ البذور فغضب عليهم بهرام جور غضباً شديداً وصادر ممتلكاتهم من أراضي وحمير وآلات موسيقية، فأصبح عليهم التجوال في البلاد للحصول على قوت حياتهم ومعيشتهم بالغناء، فمن هنا بدأت رحلتهم نحو العالم باحثين عن مستقرهم ومصدر عيشهم، فأصبحواْ سارقين وجوالين (كليبر، ١٩٧٢).

وتأكيداً على الأصل الهندي للغجر ينسب بعض الباحثين وجود علاقة بين شعب الدوم– Dom القاطن في شمالي الهند وبين جماعة الدوم–Dom القاطنة في سوريا وإيران وفي أرمينيا أيضاً والتي تطلق عليهم تسمية لوم–Lom، ويسمون أنفسهم روم– Rom في أوربا، وقد أشار جون بلوش إلى أن عشيرة الدوم معروفة في الهند منذ مدة طويلة، وقد وجدت رسالة في الفلك تعود إلى القرن السادس الميلادي جاء فيها ذكر لصفة

كاندهارفا– Gandharva بمعنى موسيقى أو موسيقي، وهم يصنفون على أنهم فئة مضطهدة هاجرت فيما بعد إلى بلاد العالم المختلفة (كليبر، ١٩٧٢).

ويرى الباحث الغجري رايكو جوريتس مؤلف كتاب (رحلة الغجر) عبر التأريخ أن غالبية الباحثين يتفقون على أن الغجر قد توجهواْ أولاً إلى إيران بعد مغادرتهم الهند، أي أن أصلهم يعود إلى الهند (الهاشمي، ٢٠١٢)، وهذا الرأي يدعم حادثة بهرام جور الخاصة بجلبه الغجر إلى بلاد فارس من الهند.

يذكر أن القاموس الفارسي فرهنك نندراج قد ورد فيه مصطلح كاولي مرادف لوري والذي أطلق على جمع من الهند (الهاشمي، ٢٠١٢)، وهذا مايؤكد هندية الغجر. وقد جمع العالم اللغوي جرلمان في العام ١٧٨٠ عدداً من الكلمات التي ينطقها الغجر، فوجد أن ثلث هذه الكلمات هندية الأصل (شلش، ١٩٥٨).

تجدر الإشارة إلى أن الباحثين في أصل الغجر لم يتفقواْ بشأن تأريخ هجرة الغجر من الهند، إذ إن من غير المعقول ولا من المنطق أن الغجر قد انتشرواْ فجأة، ولعل عام (١٠٠٠م) قد يكون مناسبا لتلك الهجرة التي استمرت حتى يومنا هذا (الهاشمي، ٢٠١٢). ولا يمنع هذا الحدس من توافد هجرات غجرية قبل ذلك العام.

ويؤكد سير أنجوس فريزر في كتابه الغجر، أنه منذ الأربعينات من هذا القرن العشرين ثبت من تحليلات لفصائل الدم أجريت لعينات من غجر أوربا أن مستوى ما بها من مورث B أكبر من المستويات الأوربية، ويتضح من توزيعات ABO أنها تعطي دعماً قوياً للفرض القائل بالأصل الهندي (مورث B أكبر مرتين في شبه القارة من نظيره في أوربا، ولو أنه يتفاوت هناك من مكان لآخر) (فريزر، ٢٠٠١).

ونعتقد أن فرضية الأصل الهندي للغجر تحمل في طياتها شيئاً من الصواب، مستندين في ذلك إلى عدد من الملاحظات التي أجريناها على الجانب الفيزيقي للغجر أثناء المعايشة معهم، فوجدنا أن معظم الخصائص الفيزيقية للغجر في مجتمع الدراسة مطابقة للخصائص الفيزيقية للإنسان الهندي، وسنتناول ذلك لاحقاً بشيء من الإسهاب، واستندنا كذلك إلى وجود عدد من الدلائل العلمية المحسوسة التي أجريت على الغجر لمعرفة أصلهم، فضلاً عن التعرف على بعض المهن ذات الجذور الهندية وتحمل أحداث تأريخية تدل على أنها صاحبة نشوء هندي، إذ كان يفرض نظام الطبقات وتقسيماته الحرفية الدقيقة على المنبوذين والطبقات الدنيا، يفرض احتراف المهن التي تشمئز منها الطبقات العليا، وذلك لأسباب دينية باعتبارها نجسة أو لأغراض الموازنة الاقتصادية، أو لسبب بسيط هو عدم تذوقهم لها أو رغبتهم فيها. فإذا نظرنا إلى قائمة الحرف المحرمة

والملعونة التي احتوتها قوانين مانو التي يعود تأريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد، لوجدنا أن الغجر قد امتهنوا الحرف التي حرمها مانو بصورة دقيقة، وجاء في هذه القوانين مايلي :

((من الضروري الاحتراس من محترفي المهن الوضيعة، هؤلاء الذين يمتهنون الشعوذة [مادة ٨ فقرة ١٠٢]، وطرد اللصوص أمثال المزيفين وقراء الطالع والحظوظ والكف [مادة ٩ فقرة ٢٨٥ و ٢٥٩]، وتجنب الشخص المنجم المحترف [مادة ٣ فقرة ١٦٤]، ومربي الكلاب التي تدرب لغرض عرض ألعابها على الناس [مادة ٣ فقرة ١٦٤]، وكذلك الراقص المحترف [مادة ٣ فقرة ١٥٥]، وتجنب اللعب بالنرد والرقص والغناء والعزف وعلى الآلة الموسيقية أو القيام بجولات لا ضرورة لها فإنها خمس رذائل ممقوتة جداً [مادة ٧ فقرة ٤٧]، أما المتاجرة بالخيول أو العربات فإنها من مهن العوائل الوضيعة [مادة ٣ فقرة ٦٤]، ولا يجوز للبراهمي تناول طعام من يشتغل بالمعادن حتى ولو كان صائغاً للذهب أو الفضة [مادة ٤ فقرة ٢١٥] (كليبر، ١٩٧٢).

يتبين من ذلك أن قوانين مانو* أسهمت في ترحال الغجر بحثاً عن أماكن أخرى غير الهند توفر لهم سبيل حريتهم، وهذه المهن المشار إليها تعد مهناً اتخذها الغجر كي يعتاشوا عليها وتساعدهم على الديمومة والبقاء، وهي موجودة حتى الآن. لذا فإن الدلائل والبراهين كلها تشير إلى علو كعب هذه الفرضية وتفوقها على باقي الفروض.

وبما أن الغجر يعدون من المترحلين والمهاجرين عبر قارات البلدان المختلفة فضلاً عن التأكيد على أصلهم العائد إلى الهند لذا لابد من التعرف على وجهة الغجر الأولى في ترحالهم، والتي أعطتهم ميزة البداوة، متجولين بعد ذلك عبر مختلف بقاع الكرة الأرضية. إذ تفيد مجمل الدراسات أن الغجر كانوا أول ما اتجهوا نحو بلاد فارس، وذلك خدمة لمصالح الملوك والأمراء وجراء عمليات الاضطهاد التي حصلت لهم في موطنهم الأصلي (فريزر، ٢٠٠١).

يذكر أن الغجر في بلاد فارس كانوا طارئين، وكان عليهم أن يتعلموا لغة جيرانهم، بهدف التواصل معهم، وكان لابد أن تكون صلاتهم بلهجات الفلاحين البسطاء أقوى من صلاتهم باللغة الأدبية الباقية في المعاجم، فاللغة الرومنية* التي يتكلم بها الغجر في أوربا حالياً فيها الكثير من الرطانة الفارسية (فريزر، ٢٠٠١).

* مانو : هي التسمية التي كان الهنود يطلقونها على ملوكهم المؤلهين.

فالخلاصة أن هجرة الغجر الأولى سارت نحو بلاد فارس والتي منها انتقلواْ إلى كافة أرجاء العالم متخذين من التجوال نمطاً ثقافياً لهم، وإن انتقالهم إلى بلاد فارس كان لأسباب عديدة ذكرناها في معرض حديثنا السالف، وأهم تلك الأسباب هو اضطهادهم في الهند، فضلاً عن رغبة الملوك في الاستمتاع بفن الغجريين الفريد من نوعه.

المحور الثاني: ثقافة الغجر في العراق

أولاً: تسمية الغجر في العراق

للغجر تسميات عديدة تختلف باختلاف البلد الذي يستوطنون به، ففي العراق تمثل تسمية الغجر المحلية بـ(الكاولية)، كما ويحلو للعراقيين أحياناً تسميتهم بـ(الكيولية). وقد ذكرت بعض القواميس التي ذكرت مصطلح كاولي ومنها قاموس فرهنك أنندراج الفارسي، الذي ورد فيه أن مصطلح (كاولي) مرادف (لوري) ومعناه عديم الحياء والخجل، والذي أطلق على جمع من الهند، وقد حذف الألف باللغة الفارسية وصار كولي (الحديثي، ١٩٧٩).

كما يؤكد (طه الحديثي) أن: "الأب انستاس الكرملي أطلق على الغجر في العراق ثلاثة أسماء هي الكاولية والكولية أو الكول، والواحد منهم كاولي، ويشير إلى إحتمالات أصلها، إلا أنه يرجح كلمة الكول أو الكاولية نسبة إلى طائفة من الأشرار والكفار كانت تقيم في ناحية مولتان بالهند (الحديثي، ١٩٧٩).

ثانياً : التوزيع الجغرافي للغجر في العراق

يتصف الغجر بالترحال الدائم، هذا ما وجد عن بعض الأسر الغجرية في العراق، فهي تقصد مكاناً تارة وتغادره تارة أخرى، لذا فإن كثافتها متذبذبة في معظم المحافظات العراقية، إذ تزداد بتوفر فرص العمل، وتقل بانخفاضها، كما أن نسبة أخرى من الغجر الكاولية تجمع بين الاستقرار في وقت والترحال في وقت آخر (الحديثي، ١٩٧٩).

فهم يتركزون بصورة رئيسة في المحافظات الجنوبية الوسطى من العراق، وذلك حسب ما أظهرت دراسة طه حمادي الحديثي في عام ١٩٧٩ عن الغجر والقرج في العراق، إذ وجد أن الغجر اعتاداواْ العيش في إحدى عشرة محافظة، تأتي البصرة في مقدمتها، وتشتمل على ٣٤،١% من مجموعهم، تليها بغداد بنسبة ٢٧،٣٧%

، ثم القادسية بنسبة ١٤،٧٧% ، وذي قار ٨،١١% ، ونينوى ٧،٤٥% ، والمثنى ٣،١% ، وديالى٢،٧% ، والتأميم ١،٢٧ ، وتقل نسبتهم عن ١% في كل من ميسان وواسط وبابل. ويعيد الباحث أسباب تركز الغجر في هذه المناطق إلى العامل الإداري المتمثل في مساعي الدولة لتوطينهم في مستوطنات خاصة بهم قرب المدن، والعامل الاجتماعي المرتبط بالجانب الاقتصادي، إذ تفرض تقاليد الزواج وختان الأطفال قيام الأسر بولائم وحفلات رقص مستعينة بمغنيات غجريات. فضلاً عن العامل التأريخي وقدومهم إلى تلك المناطق من الشرق قبل مئات السنين (الحديثي، ١٩٧٩).

فيما يرى الدكتور (حميد الهاشمي) أن الغجر يتجمعون في مناطق مختلفة من العراق، ومنها منطقة حمام العليل في الموصل، وفي مخيمات ناحية تازة في محافظة التأميم/كركوك في شمالي العراق، أما مناطق الوسط فيتركزون في أبو غريب ذلك القضاء الذي يقع في ضواحي بغداد الغربية، فضلاً عن منطقة الكمالية في أحد الأحياء السكنية في العاصمة بغداد، وفي الجنوب يتواجدون في منطقة الفوار بمحافظة القادسية الديوانية، ومنطقة الخضر وهو قضاء يقع في المثنى السماوة، وفي الشوملي ببابل، وفي الشطرة بالناصرية، وأخيراً البصرة التي يسكنها الغجر في أحيائها السكنية (الهاشمي، ٢٠١٢).

ولكن بعد العام ٢٠٠٣ حدث تحول مفاجئ في حياة الغجر، نتيجة لهيمنة مجاميع مسلحة دينية ترفض ممارسات ومهن الغجر، ما أسس لهجرات غجرية كبيرة داخل العراق، لتتجذر عزلتهم في مناطق محددة، مثل الفوار في الديوانية، والطوايل في العامرية ببغداد، ولكن تلك العزلة كانت كفيلة بحمايتهم، إذ باشرت السلطات العراقية بحماية الأقليات من التطهير العرقي. وجاء ذلك نتيجة التزام العراق بمقررات الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، فضلاً عن التزام العراق بمقررات جنيف الأربع بشأن معاملة المدنيين في ظل النزاعات المسلحة (محمد و عايش، حقوق النازحين في العراق، ٢٠٢٣).

ثالثاً- النسق القرابي :

يتخذ هذا النسق من القرابة مسألة جوهرية، إذ يحتل موضوع القرابة وما يتصل به من مشكلات تتعلق بالزواج والعائلة مركزاً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية التي تعني في المحمل الأول بدراسة المجتمعات التقليدية أو المجتمعات قبل الصناعية، وربما كان السبب الرئيس في اهتمام العلماء بدراسة القرابة هو الدور المهم الذي تلعبه علاقات وروابط القرابة في حياتنا اليومية، علاوة على طرافة الموضوع ذاته و خاصة فيما

يتعلق بعادات الزواج المختلفة و أشكال العائلة في مختلف المجتمعات مما يجعل موضوع القرابة من أكثر موضوعات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا جذبا واسترعاء لانتباه العلماء واهتمامهم (أبوزيد، ١٩٦٧).

وتلعب القرابة دوراً كبيراً في مجتمع الغجر، ففي منطقة (الطوايل) بالعامرية التي قسمناها إلى ثلاثة أصناف بحسب المهنة،* تتخذ كل الأصناف من القرابة عاملاً فاعلاً في حياتها اليومية ومختلف أنشطتها الاقتصادية، إذ يتجمع الغجر في تركيبات عشوائية بمساحة محددة يمكن تسميتها بـ(الدوائر القرابية)، فمعظم المتجاورين في السكن هم أولاد عم وأولاد خؤول، فضلاً عن وجود الأسرة الممتدة، أي أن الأخوان يسكنون في بيت واحد، وهذا ما يساعد بعضهم البعض في التغلب على جل الصعاب التي تواجههم من مشاكل وصدامات قد تحدث مع الزبائن.

وإن انتشار العوائل الغجرية وتوزيعها على أساس الرابطة النسبية والقرابية يؤشر أن الغجر يقبعون تحت نظام عشائري. فالشخص المتسيد والمسؤول عن منطقة "الطوايل" شخص غجري يقوم بجباية الأموال من كل بيت في المنطقة، ليصل المبلغ إلى خمسمائة دولار شهرياً. يذكر أن القوة التي حصل عليها هذا الشخص والتي تعطيه الشرعية في جباية الأموال جاءت من توفيره الحماية للمنطقة عبر ارتباطه بعلاقات مصلحية مع أشخاص متنفذين.

جدير بالإشارة أننا لم نجد شيخ عشيرة في المنطقة بل كان هذا الشخص صاحب المكانة عندهم بمثابة الآمر الناهي في منطقة الطوايل، إذ يمتد تأثيره على نقطة التفتيش المرابطة في مدخل منطقة "الطوايل"، والتي شيدت لحماية المنطقة والغجر بالتحديد، فعلاقة مسؤول الغجر في منطقة الطوايل بأشخاص متنفذين حتمت عليه أن يطلب الحماية.

وهذا بدوره يؤكد أن المكانة عند الغجر تأتي من القوة المعززة بالمكانة الاجتماعية، فضلاً عن العامل الاقتصادي، فأماكن تجمع الغجر على أساس الدعارة أرفع مكانة من أماكن تجمع المتسولين، وذلك على وفق الخارطة الذهنية للمجتمع الغجري. لهذا فالمكانة الاجتماعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقل الاجتماعي، إذ يسود المجتمعات الحديثة نوع من التدرج الهرمي للمكانة توزع على أساسه امتيازات الثروة والقوة والتقدير أو الإعتبار، بحيث تزداد هذه الامتيازات كلما ارتفعنا في سلم التدرج الهرمي (عاطف، ٢٠٠٦).

* تقسم منطقة الطوايل الى ثلاثة أقسام مهنية، الأول تجمع لممتهني البغاء، والثاني للمتسولين، والثالث لممتهني الفن.

أما المكانة بالنسبة للذكر والأنثى فهي متفاوتة، ترتفع في جانب وتنخفض في جانب آخر، لكن المرأة كما سنرى في صفحات لاحقة مصدر للدخل، هي المتسولة والباغية والراقصة، لكن المسؤول عن تلك النساء ذكر متسيد عليهن، فالرجل عادة محق في اتخاذ القرارات، وتكون الخزينة المالية بجعبته، فضلاً عن أن الميراث يحصل عليه الرجل ضعف ما تحصل عليه الأنثى مطبقين ما جاءت به الآية القرآنية "وللذكر مثل حظ الأنثيين"، لذلك فهم يتبعون الشريعة الإسلامية في توزيع الميراث.

يشار أن المكانة الاجتماعية تلوح إلى موقع الفرد على مستوى النسق أو المجتمع ككل، فالمكانة الاجتماعية عبارة عن عدة مراكز اجتماعية يشغلها الفرد في المجتمع، وتتحدد هذه المكانة بناء على هذه المراكز، وتخضع للمعايير والقيم الاجتماعية، فقد يحتل الفرد في ضوء المعايير الاجتماعية مكانة اجتماعية عليا في سلم التدرج الاجتماعي، وقد يشغل مكانة متوسطة أو دنيا، ويصنف المجتمع المكانة على أساس المراكز التي يشغلها الفرد تصنيفاً اقتصادياً تبعاً للمهنة أو الوظيفة أو حجم الدخل الشهري، وقد يكون أساس التصنيف تبعاً للانتماء العائلي أو القرابي أو على أساس سياسي تبعاً للسلطة (ابراهيم، ١٩٩٦).

وما يتعلق بالزواج فينتشر الزواج على أساس القرابة أي (الزواج الداخلي) في مجتمع الغجر، كذلك يوجد نوع الزواج الخارجي سواء للذكر أو المرأة، إذ يحدد الغجري على المرأة الغجرية مهراً ثقيلاً يوازي جمالها، فضلاً عن رفع مكانتها أمام الزوج أو الشخص غير الغجري، أما بالنسبة للذكر الغجري فهدفه الأول والأخير من الزواج هو البعد الاقتصادي، لتعمل المرأة بعد ذلك تحت إمرته فتدر عليه المال.

وفيما يخص الأسماء الغجرية فهي مطابقة للأسماء العراقية والإسلامية مثل "حسين، علي، مروة، رحمة، غفران" وغيرها، أما النعوت المستخدمة لمناداة الأقارب تعتبر من البديهيات، فهي لا تختلف عن ما يستخدمه المجتمع العراقي مثل "خويه، عمي أو عمو، خالي، خاله، جدو، بابا أو بويه" وغيرها من النعوت والمسميات.

مجمل الكلام أن الفرد الغجري مرتبط قرابياً في أغلب الأحيان على أساس المنفعة المادية، إذ لا يمكن رؤية غجري لا يحفز عائلته على كسب المال، فمن لايمكنه ذلك لاقيمة له.

أما من الناحية الأسرية فيمكن الاستعانة بتعريفين مقتضبين عن الأسرة ولعالمين، إذ يؤكد (كلود ليفي شيراوس) أن: "الزواج هو مصدر جماعة الأسرة، وهذه الأخيرة تتكون من نواة تحتوي على الزوج والزوجة وأطفالهما وكذلك من أولياء آخرين مرتبطين بهذه النواة"، فيما يعرفها (ميردوخ) على أنها: "جماعة اجتماعية

تتميز بمكان إقامة مشترك وتعاون اقتصادي ووظيفة تناسلية، ويوجد بين اثنين من أعضائها على الأقل علاقة جنسية يعترف بها المجتمع، و تتكون الأسرة على الأقل من ذكر بالغ وأنثى بالغة وطفل، سواء أكان من نسلهما أو عن طريق التبني" (بركو، ٢٠٠٩).

وتكون الأسرة الغجرية عادة ممتدة تحمل في طياتها بعض صفات الأسرة العراقية الريفية، فهي معتادة على العيش في ظروف قاسية من انعدام الخدمات العامة، إلا أننا وجدنا أن المشهد المادي حاضر وبقوة في الأسرة الغجرية، كامتلاك السيارات الحديثة والفارهة التي تصل أسعرها إلى آلاف الدولارات، هذا إضافة إلى اقتنائهم الملابس الأنيقة والعصرية، فللنساء علو كعب في هذه الصفة، فضلاً عن امتلاكهم الهواتف النقالة أو بمختلف أنواعها.

وإن امتداد الأسرة الغجرية لا يعدو كونه ضرورة اقتصادية، وذلك من خلال استغلال المكان وجمع أكبر عدد من الزبائن وعدم تشتيتهم، وهذا ما يخص مكان تجمعهم على أساس الدعارة. أما أماكن التجمع على أساس الفن فتقل فيها نسبة الأسر الممتدة، وذلك لكبر حجم المساحة المكانية هناك، وتوفر المردود المادي، فضلاً عن انتفاء الحاجة لبعضهم البعض في نفس المكان لأغراض اقتصادية ومهنية على عكس ما هو موجود في تجمعهم على أساس الدعارة، إلا أن ذلك لم يمنع من تجاورهم في المكان وتكتلهم على أساس الرابطة القرابية والدموية.

صفوة القول أن الأسرة الغجرية ممتدة أحياناً ونووية أحياناً أخرى، ويكون العامل الاقتصادي والمهنة ذا سطوة على خصائصها، وإن بؤرة التأثير في الأسرة الغجرية هي الأنثى، إلا أن الذكر يكون بمثابة حامي العرين والمصدر للقرارات.

أما الزواج فيبدأ عند الغجر بالخطوبة، والتي لا تطول مدتها عادة، وتأخذ أم الشاب على عاتقها مهمة الخطوبة، فتذهب لعائلة الشابة للالتقاء بأمها وترتيب الأمور، ليذهب الرجال وبعض وجهاء المنطقة لاحقاً لمفاتحة والد الفتاة، ويلي عملية الخطوبة مرسوم (الحنة) المعروف عند المجتمع العراقي، فتتحنن كفي الشاب والشابة مصاحبة بالابتهاجات والأفراح، ليأتي الزواج بعد ذلك بيوم عادة فيكون بمثابة الاحتفال الكبير. يدعى فيه الأقرباء والأصدقاء، فتتزين الغجريات بالحلي والملابس الفاتنة، وترتدي العروس بدلة بيضاء اللون والعريس يرتدي أيضاً بدلة رجالية لا يلتزم فيها بلون محدد، وغالباً ما يكون أسوداً، والاحتفالات تكون مصاحبة

بالإيقاعات العراقية السريعة، وحضور الراقصات الغجريات، فضلاً عن مطرب غجري يؤدي بعض الأغاني الشعبية.

ويسبق الزواج عقدين، الأول تحت حكم الشرع ويتم بحضور سيد أو داعية ليعقد بين الزوجين، فيعطيهما شرعية إحلال كل واحد على الآخر، أما العقد الثاني فيتم في المحكمة، وهذا العقد لا يلتزم به عامة الغجر، إذ يكتفون بعقد السيد الديني غالباً. يشار أن للزواج المبكر حضوراً لافتاً في مجتمع الغجر، فما إن يبلغ الفتى والفتاة سن التكليف الشرعي حتى يبدأ تفكير ملح بالزواج.

رابعاً : النسق الديني

يميل علماء الأنثربولوجيا المحدثون إلى اعتبار الدين والسحر جزءاً مما يسمونه بالنسق الأيديولوجي، والمقصود بالأيديولوجي نسق المعتقدات التي تفسر طبيعة علاقة الإنسان بالكون والممارسات والشعائر المتصلة بهذه المعتقدات، فالنسق الأيديولوجي نوع من الاستجابة للحاجة التي يشعر بها الناس جميعاً لتحديد معنى وجودهم في الحياة، ومن هنا كانت الأنساق الأيديولوجية تحاول البحث عن تفسير لأصل الإنسان داخل الكون وتقريب الحاضر إلى الأمام ورسم صورة للمستقبل، ويعد الدين بالذات أهم مكونات النسق الأيديولوجي، ثم يأتي السحر بعد ذلك، حيث يلعب دوراً مهماً في الحياة البدائية والتقليدية (أبوزيد، ١٩٦٧). ولكن التعريف الجامع المانع للدين يتمثل بأنه طاعة المرء والتزامه لما يعتنقه من أفكار ومبادئ (سوادي، ٢٠٢٤).

ويرتبط الدين عند الغجر ببعض الممارسات متخذين منها مظهراً وتاركين معظم التعاليم، إذ إنهم يتدينون بالدين الإسلامي، وإنهم لا يعتبرون أنفسهم محسوبين على مذهب معين، فهم حذرون دائماً في تقديم أنفسهم ووصف خلفياتهم، إلا أن عمليات التحري والاستقصاء دلت على أنهم منشطرين إلى قسمين، سنة وشيعة، لكن غالبية الشيعة بدت واضحة، إذ إنهم يرتبطون ببعض الممارسات والطقوس الخاصة والمنتشرة بكثافة فيما بينهم، ففي منطقة الطوايل وجد الباحث أن الغجر يعلقون فوق سطوح منازلهم رايات خضراء وسوداء تدل على نصرة الإمام الحسين، وإنهم يدأبون على زيارة المراقد المقدسة، مثل مرقد الإمام الحسين والإمام علي والكاظم (ع) وغيرهم، فضلاً عن أنهم يقسمون في معظم سياق حديثهم بالله والعباس والحسين وعلي، كما يقومون بتحضير الطعام خارج منازلهم لأنهم يعدون منازلهم نجسة، ثم ويوزعونه مجاناً في أيام شهر محرم. ومن الجدير بالاهتمام أن الغجر رغم انشطارهم إلى مذهبين يشهدون حياة خالية من التعصب الديني يسودها الوئام،

وهذا الانشطار ناتج عن سكن الغجر في مناطق جغرافية متعددة من العراق، منها الغربي ومنها الشرقي الجنوبي.

فالغجر المنتشرين اليوم في بغداد كان نتيجة حدوث الاضطرابات الأمنية في مختلف أرجاء العراق، حيث نزح إليها الغجر من قضاء أبو غريب ومنطقة الكمالية غرب بغداد، فضلاً عن أقلية غجرية من بعض المحافظات وبعض المناطق البغدادية الأخرى، فسكنة أبو غريب من الغجر أصبحوا هناك سنة متأثرين بإيكولوجيا المنطقة، وعلى عكس ذلك فقد أصبح الغجر في منطقة الكمالية شيعة متأثرين بالإيكولوجيا أيضاً، ورغبتهم في القبول الاجتماعي حتم عليهم أن يتصفواْ بخلفيات مذهبية وعقائدية.

يذكر أن الغجر لا يدأبون على الصلاة ولا على الصيام ولا يطبقون معظم التعاليم الإسلامية، فمنطقة الطوايل لا تحتوي على مكان للعبادة الإسلامية، إي أنها خالية من المساجد. وهناك بعض الممارسات التي يلتزم بها الغجر والتي تعبر عن أواصر إسلامية، يمارسونها وهم غير مكترثين بالدين إلا أن مصيرهم المشترك كثقافة فرعية مع المجتمع العراقي الأوسع بدا واضحاً، ومثال على ذلك نظام الزواج الذي يتم بحضور رجل دين يعقد بين الزوجين، فضلاً عن تقبلهم لتعدد الزوجات، حيث لا يزيد عددهن على الأربع، ومن الممارسات الأخرى التي يلتزم بها الغجر هي ختان الأولاد، وعادة ما تتم عمليات الختان في أعمار غير محددة تصل حتى الخامسة عشر أحياناً.

فيما تكون مراسم دفن الميت وقيام العزاء له أمراً متبايناً بين متوفى ومتوفى آخر من حيث الاهتمام وهيبة الطقس، فإذا كان الميت شخصاً طاعناً في السن ولم تكن له أهمية في العائلة أو العشيرة أصبح الحزن عليه باهتاً ممتزجاً بعدم الاكتراث، فعائلته تقوم بإخبار دفان يقوم بدفنه، أما إذا كان الشخص ذا جاه وأهمية فإن مراسم دفنه تكون مهيبة ويقام العزاء له ثلاثة أيام، فيتبنى أهل المتوفى نصب خيمة كبيرة تدعى باللهجة العراقية (جادر)، ويقومون بتحضير الولائم في الغداء والعشاء، لتأتي المعارف والأقارب للتعزية.

هناك أفراد أخرون يشملون بعدم الاكتراث والاهتمام عند موتهم، وغالباً ما يكونون من النساء، إذ إن الغجري يقوم باستئجار فتيات غجريات من مناطق أخرى مثل الديوانية والبصرة والعمارة والناصرية وغيرها من المناطق، وذلك لغرض استمرار عمله، ويكون الإيجار لمدة محددة يتفق عليها الأجير والمستأجر، ففي حال موت هذه الفتاة المستأجرة يتم إبلاغ مالكها أو زوجها أو المؤتمن عليها بوفاتها ليسرع في أخذ جثتها ودفنها، أما النوع

الآخر من الإيجار والذي يشبه في طريقته إيجار المنزل ألا وهو السرقفلية*، في حال موت الفتاة المستأجرة بهذه الطريقة فإن مراسم دفنها تكون على ذمة المستأجر.

تجدر الإشارة إلى أن أماكن دفن الموتى عند الغجر غير محددة، فالبعض يقوم بدفن ذويه في أبو غريب وبعضهم قرب منطقة لطوايل، إذ لاتتم زيارة الميت بعد حين إلا نادراً، وهذا يدلل على أنهم شعب يكره الحزن ولا يقيم له اهتماماً ووقتاً.

يذكر أن الغجر على دراية بأن معظم مهنهم منافية للدين والشريعة الإسلامية، إلا أنك لو سألت غجرياً عن سبب بقائه معتمداً على مهن محرمة في مورده الاقتصادي فيجيبك بأن هذا (كارنا) أي عملنا، كذلك فإن للعزلة التي يعيشونها أثر في تمسكهم بمهنهم هذه، إذ سنناقش هذه الفقرة بشيء من التفصيل لاحقاً.

رابعاً: النسق الإقتصادي

يركز النسق الاقتصادي في هذا البحث على معظم المهن التي تميز أسلوب حياة الغجر في العراق، فمنطقة الطوايل كما ذكرنا تتكون من تجمعات ثلاث، هي المعسكر والخباطة والطوايل، ليتخذ الغجر في التجمع الأول من الفن مهنة لهم، وفي التجمع الثاني من التسول مهنة، أما التجمع الأخير فيكون على أساس الدعارة وتربية الخيول الرياضية. وفيما يلي شرح مفصل لأساليب ممارسة هذه المهن وطرق ديمومتها، على الرغم من رفض المجتمع الأوسع، وهذه المهن كالآتي:

أ- **الفن الغجري (الموسيقى والغناء والرقص):**

لقد شكل الفن طابعاً حتمياً عند الغجر، فجل الراقصات والمطربات والمطربين الغجر تلاقحوا هذا النوع من الفن عبر التنشئة الاجتماعية، لذا يحرص الغجر عادة على تلقين ذويهم وتدريبهم على ممارسة مهنهم، والتي تجلب لهم مورداً اقتصادياً في قادم الأيام، والفن إحدى هذه المهن المتحتمة على أسلوب حياتهم.

ويكون عمل الغجر مقتصراً على الليل، إذ تبدأ حفلات الملاهي الليلية بدخول الزبائن، وبعد ذلك يقوم مطرب أو مطربة بالغناء، ويصحب ذلك برقصات تحاكي الإيقاعات الغنائية، وأحياناً تعزف الموسيقى من دون مطرب لتكون الراقصات مستحوذات على أغلب أوقات السهرة، فيقوم الزبائن بعد ذلك بالتفاعل مع الراقصات،

* السرقفلية: هو نظام لبيع وشراء الدور السكنية بنسبة لاتتجاوز ٢٠ بالمائة من السعر الكلي للدار، على أن يدفع المشتري إيجاراً شهرياً معقولاً، ويمكن للمشتري بيع الدار بنفس الطريقة لآخرين واسترداد ماله، لكن المالكي يبقى واحداً، يبقى الإيجار الشهري يدفع لحسابه.

وللتعبير عن إعجابهم يقومون برمي الأوراق النقدية على الراقصة، غالباً ما تكون عملتها الدولار، بممارسة تسمى شعبياً بـ(الكيت أو الشوباش)، حيث تجمع هذه النقود عند تساقطها من قبل أشخاص محددين عادة، وليس من حق أحد المساس بهاغيرهم، لتكون حصة هذه النقود عائدة لصاحب الملهى أو لاتفاق توزع على إثره هذه النقود بينه وبين الراقصة. لكن هناك ممارسة أخرى تقوم الراقصة من خلالها الحصول على كل أموال الكيت، وذلك عبر وضع أحد الزبائن النقود بشكل طولي في ثوبها وتحديداً على صدرها أو ظهرها، فتبقى معلقة ويظهر نصفها العلوي، أما نصفها السفلي فيغطى تحت ثوب الراقصة، وبهذا ليس من حق صاحب الملهى أن يطالبها بقرش واحد عما حصلت عليه، فيما تتكون الفرقة الموسيقية عادة من الرجال الغجر، إذ يقع على عاتقهم حماية النساء فضلاً عن تأمين نقلهن من البيوت إلى أماكن العمل وبالعكس.

تجدر الإشارة إلى أن عمل النساء الغجريات لا يكون مقتصراً على الملاهي الليلية فقط، بل إن لعلاقات الصداقة المقربة بينهن وبين الزبائن أثر في خروجهن من دائرة الملهى وتكوين سهرات ليلية في أحد البيوت، ليتخللها عرض راقص يهدف إلى تقديم المتعة للزبون، و تستمر السهرة إلى صباح اليوم التالي.

ولقد عرف الغجر منذ أزمان بعيدة بأنهم يحترفون الغناء والعزف على العديد من الآلات الموسيقية، سواء في العراق أو في كل البلدان التي حطوا رحالهم فيها، فضلاً عن احترافهم الرقص الذي كان ومازال مصدراً مهماً لشهرتهم وكسب قوتهم.

إن ما يصح من وصف للأغنية الغجرية هو أنها لا تختلف كثيراً عن الأغنية العراقية الريفية، وغالباً ما يستخدم إيقاعي البستة والهيوا المشهورين عند العراقيين والريفيين، وإن أرسينا تركيزنا على الأصوات الغجرية لوجدنا أنها تختلف كل الاختلاف عن الأصوات العراقية، إذ تتميز الأصوات الغجرية الكاولية بخامة خاصة وعريضة بإمكانها غناء الطبقات العالية بإجادة. وتبدأ الأغاني التي يؤديها الغجر عادة بوصلة غنائية لا تحتوي على إيقاع بل على آلات موسيقية أمثال العود والكمان والقانون، وتعرف هذه الوصلة بالموال، لتبدأ الأغنية بالشروع في دق الطبول، فيحظر الإيقاع والنوتة الخاصة به، لتتميز الأغنية بعد الموال الهادئ والحزين عادة بالسرعة، فإيقاع البستة و الهيوا يتسم بهذه السرعة، وهذا ما يؤدي إلى أن يكون الحماس سيد المشهد عند الجمهور. ولتأكيد تحليلنا على الأغاني وخصوصية الأصوات الغجرية نطابق ما وجدناه على فنانات غجريات سابقات حتى لا يكون تحليلنا مقتصراً على اللحظة وناتجاً لتطور الأصوات الغجرية، ففي الحقيقة أن الأصوات الغجرية لم تتغير خامتها ولم يتغير شكلها في الغناء إلا في بعض الأغاني التي حملت

طابع الألحان الحديثة، وللتأكد من ذلك يمكن الإطلاع على أغاني ساجدة عبيد فموقع التواصل الاجتماعي زاخر بها. كما ويمكن الإطلاع على أغاني عدوية البياتي ورنا وليد أيضاً.

وفي الحفلات غالباً ما يصاحب الغناء بالرقص، فالرقصة الغجرية الكاولية تحاكي الموسيقى والإيقاعات التي ذكرناها، حيث تقوم الراقصة بحركات خاصة وسريعة كالقيام بدوران الرأس والرقبة بسرعة قياسية، لتجعل شعرها متطايراً في الهواء، أو أنها تقوم برفع رجلها اليمنى الحافية وإرجاعها إلى الأرض متمكنة من القيام بحركة دوران حول أرجاء المسرح، ثم تقوم بنفس الحركة مستخدمة رجلها الأخرى الحافية أيضاً.

يذكر أن الراقصة عادة ما تحفظ الأغنية أو الموسيقى عن ظهر قلب، لذا فإنها تتنقل من حركة إلى أخرى على أساس الإنتقالة في النوتة الموسيقية والإيقاع، ففي حركة أخرى تقوم الراقصة بالجثو على ركبتيها وتجعل من شعرها يتدلى ملامساً الأرض، لتقوم برجفة في رأسها متزامنة مع دقات سريعة لطبل صغير يدعى شعبياً بالخشبة، ثم وبذات جثوتها تقوم بدوران رقبتها لمرات عدة، وتسمى هذه الحركة شعبياً بـ(الشعر) نسبة إلى شعر رأسها، فقد ينادي أحد الزبائن أو حاضري الحفل على الراقصة بمفردة شعر مرتين أو أكثر طالباً منها للقيام بحركة الدوران هذه، إذ يتم التنسيق بين الراقصة والطبالين لتلبية طلب الزبون، وأثناء اهتزاز الراقصة على المسرح ترفع يديها لتقوم بطرق إصبع إحدى يديها بيدها الأخرى. جدير بالذكر أن الراقصة الغجرية عادة ما تتزين بالحلي والقلادات الذهبية فضلاً عن فستان جميل ترتديه.

ب- البغاء :

يتخذ غجريون آخرون من البغاء مهنة إلى جانب الفن، ففي مجتمع الدراسة سكن ممتهنوا البغاء في تجمع موحد، واتخذوا من إسطبلات الخيول مأوى لهم ومكاناً لممارسة مهنهم، فضلاً عن بعض البيوت غير القانونية، وتوجد إلى جانب إسطبلات البغاء والبيوت العشوائية عدداً من الإسطبلات لتربية الخيول الرياضية، وهذا التجانب جعل المنطقة غير راسية على خلفية معينة، مما حدى ببعض السماسرة الوقوف على بوابات الإسطبلات الكبيرة لمنادات المارة طالبين منهم الدخول، إذ يقوم السمسار بعملية إغراء مؤكداً للزبائن أنه يمتلك نساءً جميلات وفاتنات أو صغيرات في السن، وعند دخول الزبون إلى الإسطبل يبدأن النساء الغجريات بتقديم أنفسهن، وأحياناً يقوم قواد بعملية التقديم، ليتسنى للزبون اختيار واحدة والدخول معها لممارسة الجنس في غرفة صغيرة يسميها الغجر (بنجره)، حيث يكون شكلها طولياً صممت أساساً لاستيعاب حصان واحد. أما سعر الممارسة الواحدة فيتراوح نسبة لجمال المرأة أحياناً، إذ لا يتجاوز عادة خمسة وعشرين ألف دينار عراقي، وإن

الزبون يكون له الحق في طلب تذليل السعر، ليصل إلى عشرة آلاف دينار كحد أدنى. وتذهب الأموال هذه إلى رب الأسرة أو إلى زوج الفتاة مباشرة، هذا فضلاً عن إكرامية تحرص الفتاة الغجرية للحصول عليها من الزبون. ولكن بعد أن قامت أجهزة الدولة بتهجير الغجر من منطقة الطوايل – كونهم يسكنون بطريقة غير قانونية في إسطبلات الخيول – انتشر الغجر في مدينة بغداد وبدأوا يمارسون البغاء بسرية تامة.

يذكر أن الغجر في مختلف أرجاء العراق يمثلون مأوى لكثير من الفتيات الهاربات خوفاً من مطاردات غسل العار نتيجة لعمل خرق قوانين الثقافة والعرف. فقد وجد في مجتمع الدراسة أن عدداً من الفتيات جيئ بهن تحت إغراء الحماية من أي خطر وتوفير العيش والمأوى.

ويقوم الغجر كذلك لديمومة عملهم هذا باستئجار الفتيات من أماكن أخرى غجرية كمناطق تجمع الغجر في الديوانية والناصرية وغيرها بمدد محددة. تجدر الإشارة إلى أن الغجر يؤكدون دائماً أن العمل في البغاء لا يشمل نسائهم بل نساءً هاربات أي عرباً كما يحلو لهم تسمية غير الغجر، ويشمل العمل في البغاء أيضاً نساء مستأجرات.

ت–التسول:

يعد التسول من المهن الأساسية للغجر في العراق، لاسيما بعد العام ٢٠٠٣ وانحسار مهنهم المعتادة مثل الفن، حيث وجد الباحث في مجتمع الدراسة أن عدداً كبيراً من الغجر يتخذون التسول مهنة لهم. يذكر أن للتضامن الاجتماعي دور في حياتهم، فهم يتعاونون غالباً في عملهم، يخرجون بمجاميع موحدة ويتوزعون على الطرقات.

ويشكل الأطفال وكبار السن أغلب المتسولين، وذلك لكسب عطف الناس واستحصال المال جراء ذلك، ويستخدم المتسولون الغجر عادة أنواعاً مختلفة من الحيل والألاعيب لتمييزهم على أنهم من المحتاجين والفقراء، مثل الادعاء بالعوق والجلوس على كراس متحركة أو القسم بعدد من الأئمة المعصومين على أنهم محتاجون إلى المال، أو حتى البكاء في طريق المارة، لذا فإن أساليبهم لا تعد ولا تحصى لكسب الود والعطف، هذا فضلاً عن أنهم بين آونة وأخرى يقومون بتبديل أماكنهم المعتادة في إشارات المرور ونقاط التفتيش الأمنية، وذلك بغية عدم كشف خططهم في التحايل والحصول على مردود اقتصادي أكبر.

حدير بالذكر أن الفتيات الغجريات الصغيرات العاملات في مجال التسول سرعان ما يتحولن إلى مهنة الفن أو البغاء في حال بروز الموهبة لديهن، فضلاً عن اكتشاف بعض خصائص الجمال.

رابعاً– مهن أخرى :

امتهن بعض الغجر مهناً تختلف عن سابقاتها، فبعضهم عمل في التجارة وبعضهم الآخر عمل في بيع وشراء السيارات، وهؤلاء من القلائل الذين استطاعوا الانفكاك عن مهنهم السابقة، إلا أنهم يكونون دائماً على حذر تام في عدم كشف هوياتهم الغجرية، لأن ذلك سيلحق بهم الخزي والعار وبالتالي يؤدي إلى إحداث خلل في منظومة التواصل.

ويعمل الغجر كذلك في الأعمال الحرة الأخرى إلى جانب عملهم بالفن والبغاء والتسول، إذ يبيعون المياه المعدنية وبعض الأكلات السريعة لمرتادي نادي الفروسية أو إسطبلات البغاء، فضلاً عن بيعهم للمشروبات الروحية.

وهناك فئة من الغجر تمتهن تربية الخيول، فسباقات الخيول تقام يومين من كل أسبوع، وكل سباق يجني الفائز به مليوني دينار عراقي تقريباً، إذ يكون نادي الفارس المجاور لمنطقة الطوايل حلبة واسعة لهذا السباق. يذكر أن الغجر العاملون في البغاء والذين يسكنون في إسطبلات الخيول بتربية بعض الخيول استئناساً تارة وتربيتها لصالح مالكي هذه الإسطبلات من العرب أي من غير الغجر تارة أخرى.

تجدر الإشارة إلى أن الغجر يعدون ماهرين في تربية الخيول نتيجة عوامل تتعلق بالبعد التأريخي والوراثي، كونهم مترحلون وماهرون بالتنقل بالخيل أباً عن جد، لكنهم عادة ما يشاركون في سباقات تحت أسماء غيرهم، أي أن مالكي الخيول يكونون من غير الغجر، إذ يقومون بتشغيل الغجر في تربية الخيول وامتطائها في السباقات، حيث تكون حصة الغجريين المالية قليلة لا ترقى لمستوى الجهد الذي يبذلونه، وإن الغجري في الوقت ذاته يكون مستمتعاً جداً بهذا العمل بسبب حبه العميق للخيول.

المحور الثاث: تواصل الغجر

يمثل التواصل أحد أهم الموضوعات الأنثروبولوجية، يدخل حيز التفاعل والعلاقات الاجتماعية، وهو صفة إنسانية خالصة، يتم عبرها استخدام اللغة والرموز. وهو بالمعنى الدارج يشير إلى تبادل ونقل المعلومات بين الأفراد، ويتم ذلك عبر فلسفة تشاركية يكون الفرد فيها مؤثراً ومتأثراً (ميري، ٢٠٠٦).

ويكون تواصل الغجر مع غيرهم في المجتمع العراقي بطرق وأساليب عدة، حيث وجد الباحث أن الصداقات المبنية على أساس الوجه للوجه لها أثر في مجتمع الدراسة، فلقاءات الغجر مع غيرهم في منطقة الطوايل يكون بشكل مستمر وعادة ما يأخذ مأخذ الضرورة، لأن الطرفين يسكنون المكان نفسه، وفي الوقت ذاته تدخل المصالح المتبادلة في صلب هذه الصداقات كالمصلحة الاقتصادية، إذ إن أصدقائهم من غير الغجر يحضرون عادة إلى بيوتهم طلباً في الاستمتاع مع إحدى الغجريات، وتأخذ العلاقات خارج أسوار منطقة الطوايل مأخذ المصالح أيضاً، فعلاقة الشخص الغجري المسؤول أو المتنفذ في منطقة الطوايل مع متنفذين في حكوميين لم تنشأ إلا عبر مصالح متبادلة، فالغجري بإمكانه إغراء الشخص المسؤول بالمال والنساء الجميلات والسهرات الراقصة، ليأخذ بالمقابل من هؤلاء المتنفذين أوامر تتعلق بمصلحته الشخصية أو مصلحة منطقة نفوذه الطوايل كتوفير الحماية لهم والاهتمام بالخدمات العامة.

فيما لفت انتشار شبكات الأنترنت لدى الغجر أنظار الباحث، مما جعله يتحرى عن طرق وأساليب استعمال هذه التقنية، إذ وجد أن لمواقع التواصل الاجتماعي من فيسبوك ويوتيوب صدارة في الاستخدام، وهذا قد يساعد تدريجياً على إلغاء الفوارق القيمية عبر تكوين علاقات اجتماعية متعددة خارج إطار العلاقات الغجرية.

وفي لقاء مع أحد الغجريين حاولنا معرفة ما إذا كانت هناك زيجات بين الغجر وغيرهم، فأكد أن الزيجات بين الغجر وغير الغجر تتم وفق مبادئ، إذ إن الغجري ليس بإمكانه الزواج من غير الغجريات وفق مراسيم اعتيادية طالباً يد الفتاة من أهلها، إلا أن غير الغجري بإمكانه الحصول على إحدى الغجريات، فالغجر لا يمانعون زواج إحدى نسائهم بغيرهم، وفي هذه الحالة يكون مهرها عال دائماً، وبين أيضاً أن زواج الغجري بفتاة من غيرهم يتم من دون علم أهلها، فغالباً ما تكون هذه الفتاة هاربة من بيت أهلها أو زوجها طالبة

الالتجاء في إحدى بيوت الغجر لغرض المأوى. هذا ما يؤكد أن اتصال الغجر مع المجتمع الأوسع عبر المصاهرة ضعيفاً لدرجة كبيرة.

وفيما يتعلق بالنشاط الاقتصادي فإن المجتمع العراقي يستهجن فكرة العمل مع شخص كاولي، إذ إن الصورة النمطية عن الغجر متجذرة في الفرد العراقي، لتشير إلى الانحطاط والدونية ومختلف الصفات الهجينة، أما عملهم في الأماكن المشبوهة يكون مضموناً، كأن يرأس الغجري بيت دعارة أو يدخل في شراكة مع صاحب ملهى، أما إذا كانت أعمالاً اقتصادية مقبولة داخل المجتمع العراقي كالشراكة في محال بيع الأقمشة أو الملابس فإنك من غير الممكن أن تجد شخصاً غجريا يشاركه مواطناً عرقياً اعتيادياً.

وقد عانى الغجر من تمييز يتعلق بهوية الأحوال المدنية، حيث كان الغجري مصنفاً ومميزاً عن العراقيين الآخرين، ما كان يصعب من المعاملات المتعلقة بتجديد المستمسكات الثبوتية. يذكر أن أول قرار حكومي صدر لمنح الغجر الجنسية العراقية كان في عام ١٩٦٢ (الهاشمي، ٢٠١٢)، إذ لم يكونواْ مشمولين بحق المواطنة قبل ذلك العام وإنهم كانواْ يعدون من الأجانب.

يذكر أن المركز الانتخابي الوحيد الذي كان يوفر لهم أسمائهم وسجلاتهم يقع في قضاء أبو غريب، فقد عانواْ مشقة الوصول إلى مركزهم الانتخابي الذي كان يبعد مسافة غير قليلة عن منطقة سكنهم الطوايل.

أما بالنسبة للإرهاب والعمليات التي استهدفت المواطنين العراقيين فلم يتعرض الغجر في منطقة الطوايل لاعتداء إرهابي، و هذا ناتج عن انعزالهم فضلاً عن توفير الحماية لهم من قبل الجيش العراقي، إذ يصعب دخول فرد مسلح إلى منطقة سكنهم. ولم ينتم الغجر لأي تنظيم إرهابي أو مليشيا مسلحة، وذلك قد يعود إلى أن الحتمية المهنية سيطرت على أسلوب حياتهم فلم تترك لهم مجالاً للتفكير بالانتماء لمثل هكذا تنظيمات، فضلاً عن أن عملية الرفض والطرد الاجتماعيتين الناتجة عن تحريم الدين لمعظم المهن والممارسات التي يتبناها الغجر قد جعلت منهم متعارضين دائماً مع أيديولوجية هذه التنظيمات المسلحة.

المحور الرابع: مميزات الغجر الكاولية

أولاً– اللغة :

تعد اللغة أداة رئيسة تساعد الغجر على التفاعل الاجتماعي فيما بينهم، فقد يستعمل الغجر بعض الكلمات الخاصة بهم للتخاطب في أوقات الضرورة كي لا يفهمها غير الغجر، لذا تحرى الباحث عن هذه اللغة، إذ وجد أنها لا تشير إلى لغة خاصة بهم، فهي خليط من عدة لغات منها الفارسية والتركية والكردية، فضلاً عن ذلك فإن حاجة الغجر إلى رطانة خاصة بهم حتم عليهم تكوين بعض المفردات الخاصة، فضلاً عن بعض المفردات التي لا يعرف مصدرها. فإشارة الباحث إلى أن لغة الغجر ليست لغتهم أو أنها ليست لغة تخصهم يعود إلى اعتقاد الباحث بأن اللغة التي يتكلمها الغجر حالياً جاءت معظمها من إيران، ففي هذا البلد تعيش ثلاث قوميات رئيسة هي الفارسية والتي تتكلم الفارسية والقومية التركية التي تتكلم التركية والقومية الكردية التي تتكلم الكردية، فضلاً عن قوميات أخرى تشكل أقلية في المجتمع الإيراني. وبما أننا توصلنا مسبقاً إلى أن هجرة الغجر الأولى للعراق كانت من بلاد فارس، فمن المرجح أن الغجر في العراق قد اقتبسوا هذه اللغة أو المفردات جراء مكوثهم مدة طويلة في بلاد فارس وفي أغلب محافظات البلاد، لذا لا تعد لغة الغجر في العراق هي اللغة ذاتها التي كانت تخصهم في موطنهم الأصلي الهند، لكن يمكن القول أنها لغة تخصهم في العراق حالياً، إذ اللغة الغجرية تعود إلى أزمان سحيقة منذ وجودهم في وطنهم الأصلي، فاللغة الغجرية الأصلية هي اللغة الرومنية، وإن الغجر قد ابتعدوا كثيراً عن هذه اللغة، حتى أصبحوا يتكلمون لغات مختلفة متأثرين بإيكولوجيا البلدان التي استوطنوها.

يذكر أن الكثير من الغجريين لا يتداولون هذه اللغة بل والبعض منهم تناساها، نتيجة عدم تدوينها واعتمادهم على النقل الشفاهي لها، وإنهم يحرصون غالباً على أن لا يعرف غيرهم بوجود لغة أو شفرة كلامية تخصهم. لذا يمكننا القول أن اللغة عند الغجر تعد خاصية مهمة تميزهم وتساعدهم في الحفاظ على تجانسهم وتجعلهم على خط ثقافي واحد.

وفي مقابلة مع غجري أكد أن: "النظام السابق استخدم الغجر في حربه ضد إيران كمترجمين لنداءات الجيش الإيراني على الخطوط الأمامية، بغية الكشف عن خططهم وتفادي هجماتهم المحتملة". وأضاف أن: "الغجر نجحوا نجاحاً باهراً في تنفيذ هذه المهمة".

ثانياً– الشكل الفيزيقي :

لقد تطرقنا سابقاً للشكل الفيزيقي للإنسان الغجري في مختلف دول العالم، إذ وجدنا في الميدان أن ما ذكرته المصادر والصحف وما جاء به الباحثون المهتمون بشؤون الغجر قريب جداً من الصحة، فالغجر الذكور في منطقة الطوايل يتميزون ببشرة شديدة السمرة مائلة إلى الزرقة، وملامح مميزة إلا أنها ليست مختلفة كل الاختلاف عن الإنسان العراقي، فأنوفهم صغيرة مدببة ومتناسقة مع الفم الذي يكون صغيراً نوعا ما، أما العيون فتكون بين المتوسطة إلى كبيرة الحجم، وشعرهم يكون أسوداً وغير مجعد. ويتميزون كذلك ببنية قوية وقامات متوسطة. يذكر أن الغجري بإمكانه التعرف على الغجري من خلال ملامحه وصفاته الفيزيقية بسهولة، فضلاً عن اللغة التي قد يستخدمها للتأكد منه.

تجدر الإشارة إلى أن تأثير الجانب الإيكولوجي للمجتمع العراقي بدا واضحاً عليهم، حيث لاحظنا أن عدداً كبيراً منهم يطلقون اللحى ويقومون بتربية الشوارب، فضلاً عن ارتداء الأزياء العراقية كالجلباب/الدشداشة والبنطلون والقميص فضلاً عن العقال الذي يرتديه كبار السن والوجهاء حصراً، فالخصوصية الغجرية بدت خفية غير واضحة، وإن عمليات التزاوج الكثيرة مع غير الغجر قد غيرت كثيراً من ملامحهم، إذ تبين لنا وجود تفاوت في الشكل الفيزيقي للذكر الغجري، إلا أن السواد الأعظم منهم يحمل تلك الصفات التي ذكرناها.

وبالنسبة للأنثى فإن سمار البشرة أو بياضها على تفاوت، والسبب عائد إلى الزواج الخارجي الذي أشرنا إليه فضلاً عن عمليات التغجر* التي تصيب الأنثى غالباً، إلا أنها بشكل عام تكون بشرتها برونزية مائلة إلى السمار، ويكون طول الفتاة الغجرية متوسطاً أيضاً لتساوي الرجل إلى حد ما. أما شعرها فيكون أسوداً و ناعماً. يشار أن للجانب الإيكولوجي تأثير على الأنثى الغجرية، فهي في البيت ترتدي عادة الجلباب أي الثوب الطويل والذي يعبر عن خاصية عراقية، هذا فضلاً عن أن كثيراً منهن يرتدن الحجاب.

ويمكننا التأكيد على أن الغجر ممتثلين للثقافة الأوسع، إلا أنهم يمتلكون بعض الخصائص التي تميزهم، والجانب الفيزيقي هو أحد هذه الجوانب، فسمار البشرة الشديد والشعر الفاحم فضلاً عن قوة البنية خصال رئيسة لتكوين صورة نمطية عن الفرد الغجري.

* التغجر: مصطلح يطلق على كل من ينتمي إلى الغجر فيتصف بصفاتهم.

ثالثا- أنماط السلوك

يتميز الغجر بأنهم يستخدمون مجموعة من الحيل حتى مع أقرب الناس إليهم، وهم في نفس الوقت كاذبون محترفون، فعليك أن تعاشر الغجري مدة من الزمن لتكتشف أنه كاذب، إذ باستطاعته سرد حكاية كاملة ومفصلة لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

وهذا يدل على أن الغجر يضطلعون بذكاء اجتماعي، وهو المفهوم الذي قدمه عام ١٩٢٠ عالم النفس الأمريكي (إدوارد ثورندايك)، الذي وصف الذكاء الاجتماعي بأنه القدرة على إنجاز المهام الشخصية، إنها القدرة على قراءة الإشارات غير اللفظية أو إجراء استنتاجات اجتماعية دقيقة (ناصر، هادي، ابراهيم، و حمد، ٢٠٢٤).

كما أنهم لصوص بارعون أو قطاع طرق (سلابة)، فقد أكد مخبرون شهدوا وقائع سرقة لزبائنهم إما عن طريق التسليب أو خفة اليد، لتنتهي هذه السرقة أحياناً بضياع حق المسروق، وأحياناً أخرى يتم إرجاع هذه المسروقات من خلال شكوى يقدمها المسروق إلى نقطة التفتيش الرئيسية للمنطقة، لتبلغ النقطة بدورها مسؤول منطقة الطوايل أو التجمع الغجري، فيبادر الأخير بإرجاع مسروقاته فوراً من منازل الغجريين.

جدير بالذكر أن الغجري براجماتي بطبعه، يستخدم المكر والخداع والكذب عادة لأغراض شخصية ومنافع اقتصادية، فعلى أساس السلوك يكرس الغجر معظم أنماطهم وتفاعلاتهم الاجتماعية نحو الاقتصاد.

النتائج:

١- يعد الغجر ذو ثقافة خاصة ومتمايزة، وهذا التمايز يطرح هويتهم الاقتصادية والمهنية بالدرجة الأساس، فهم ثقافة فرعية غير منفصلة انفصالاً تاماً عن ثقافة المجتمع العراقي.
٢- كانت هجرة الغجر الأولى للعراق عبر بلاد فارس، وذلك لأسباب تتعلق باللغة والجانب الإيكولوجي لسكنة غجر العراق المحاذي لإيران، فضلاً عن وقائع تأريخية تؤكد هجرتهم هذه، وهم حالياً يعدون أقلية إثنية داخل المجتمع العراقي.
٣- إن موطن الغجر الأول هو الهند، وذلك وفقاً لدلائل تأريخية تبين أن معظم المهن الحالية للغجر ذو أصل هندي، فضلاً عن الجانب الفيزيقي المميز لهم والذي يطرح هويتهم الهندية بشكل أساسي.

٤- لعنصر القرابة تأثير كبير على أسلوب حياة الغجر، ففي مجتمع الدراسة يسكن الغجر غالباً بشكل يمكننا تسميته بالدوائر القرابية.

٥- المكانة عند الغجر تأتي من القوة المعززة بالسلطة الاجتماعية والحكومية فضلاً عن العامل الاقتصادي.

٦- يمتهن الغجر بشكل رئيس الفن، البغاء، والتسول.

٧- يتدين الغجر بالدين الإسلامي بمذهبيه السنة والشيعة، لكن الدين عندهم لا يعدو كونه تأثراً إيكولوجياً، فهم غير ملتزمين بمعظم التعاليم المنصوص عليها بالدين الإسلامي.

٨- إن الغجر على اتصال دائم بالمجتمع العراقي، وإن هذا الاتصال يشوبه حذر وخلل كبيرين.

٩- يشوب اتصال الغجر مع المؤسسات الحكومية خللاً كبيراً.

١٠-تمثل اللغة والشكل الفيزيقي فضلاً عن بعض أنماط السلوك خصائص رئيسة تميز الغجر عن الآخرين.

المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر العربية:

أحمد أبوزيد. (١٩٦٧). *البناء الاجتماعي، الجزء الثاني: الأنساق*. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

السيف محمد بن ابراهيم. (١٩٩٦). *المدخل لدراسة المجتمع السعودي*. الرياض: دال الخليجي للنشر والتوزيع.

المعجم الوسيط. (٢٠٠٤). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية للنشر والتوزيع.

جان بول كليبر. (١٩٧٢). *الغجر: دراسة تأريخية اجتماعية فلكلورية*. (لطفي الخوري، المترجمون) بغداد: دار الحرية للطباعة.

جان مارك ميري. (٢٠٠٦). *فلسفة التواصل*. (عمر مهيبل، المترجمون) الدار العربية للعلوم والنشر.

جمال حيدر. (٢٠٠٨). *ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع.

حميد الهاشمي. (٢٠١٢). *تكيف الغجر*. بغداد: دار المدى للثقافة والنشر.

سعاد سطحي. (٢٠١٣). فقه الأسرة. *جامعة القادر للعلوم الانسانية*.

سير أنجوس فريزر. (٢٠٠١). *الغجر*. (عبادة كحيلة، المترجمون) المجلس الأعلى للثقافة.

طه حمادي الحديثي. (١٩٧٩). *الغجر والفرج في العراق*. الموصل: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية.

غيث محمد عاطف. (٢٠٠٦). *قاموس علم الاجتماع*. دار المعرفة الجامعية.

لطفي شلش. (١٩٥٨). *قبائل الغجر*. القاهرة: دار الكتاب المصري.

مزوز بركو. (٢٠٠٩). التنشئة الاجتماعية في الأسرة الجزائرية. *جامعة باتنة*، ٤٥.

نبيل صبحي حنا. (١٩٨٠). *جماعات الغجر: مع إشارة خاصة لغجر مصر والبلاد العربية*. القاهرة.

نبيل صبحي حنا. (١٩٨٣). *البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر*. القاهرة: دار المعارف.

ثانياً- مصادر مجلات الجامعة المستنصرية:

أشواق صبر ناصر، ابتسام راضي هادي، فاطمة سعيد ابراهيم، و أزهار جابر حمد. (٢٠٢٤). التمييز الانفعالي وعلاقته بالذكاء الاجتماعي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية من وجهة نظر أمهاتهم. *مجلة أبحاث الذكاء*، ١٨ (٣٨)،٢٢-٤٦. https://iru.uomustansiriyah.edu.iq/index.php/intel/article/view/645

ريام حسن سوادي. (٢٠٢٤). مفهوم الدين في فلسفة وليام جيمس دراسة في الدين البراجماتي. *مجلة آداب المستنصرية*، ٤٨ (١٠٥)،٨١٥-٨٣٣. https://amm.uomustansiriyah.edu.iq/index.php/mustansiriyah/article/view/1215

نور سعد محمد، و حسام بردان عايش. (٢٠٢٣). حقوق النازحين في العراق. *المجلة السياسية والدولية*، ٥٤ (١)، ٤٨٩-٥٠٢. doi:https://doi.org/10.31272/ipj.54.20